

الترجمة وأثرها في تقدم المسلمين

حمادي العبيدي*

ظهرت حركة الترجمة في عهد مبكر من حياة المسلمين، وكانت بداية ظهورها على يد الخليفة الأموي «خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» المتوفى سنة 85 هـ، فقد كان أول من عرفت له مكتبة من الخلفاء في الإسلام(1) وقد شُغف بالكتب اليونانية القديمة. فاتجه إلى ترجمتها إلى العربية، وكان عمله هذا فريدا لم يسبقه إليه أحد. يقول ابن النديم :

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان. وكان فاضلا في نفس، وله همّة ومحبّة للعلوم، خطر بباله الصنعة(2)، فأمر بإحضار جماعة من ألفاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر - وقد تفصّح بالعربية - وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل في الاسلام كان من لغة إلى لغة»(3).

ويظهر أن خالد بن يزيد كان يتلقى دروسا في تلك العلوم عن بعض النصارى، فابن خلكان يحدثنا أنه كان يتلقى العلم اليوناني عن راهب من الروم يدعى «مَرْيَانُس» وأنه برع في ذلك، وألف ثلاث رسائل دلت على حذقه لما تلقاه(4).

ويقال إن خالدا كان مغرما بنوعين من العلوم هما الطب والكيمياء، دفعته إلى الطب حاجته إلى دواء لما أصابه من وهن كان كثير الشكوى منه. ودفعته إلى الكيمياء رغبته في صنع الذهب، فكان شغوقا بالمؤلفات اليونانية التي تتناول هذين العلمين، وأحضر بعد الأطباء من مصر، وأمرهم أن يترجموا له كتاب «جالينوس» في الطب(5).

* أستاذ بالمعهد الأعلى لاصول الدين، ألقى هذه المحاضرة على منبر نادي الفكر بالمعهد.

ومن الناس من يذهب إلى أن شغف خالد بن يزيد بالعلوم اليونانية لا يعود إلى مرضه، ولا إلى حبه للاكتشاف والاختراع، وإنما يعود إلى فشله في سياسة الدولة، فلم يكن إقباله على العلم إلا تعويضا عن ذلك الفشل الذي مُني به، وأجبر بسببه على التنازل عن الحكم(6).

إن هذا الرأي ليس صحيحا وإنما الصحيح عكسه، وهو أن انصرافه إلى العلوم كان سبب في إهماله شؤون الدولة، فابن خلكان يذكر أن خالدا كان منصرفا إلى صناعة الكيمياء والطب، منشغلا بهما عما سواهما حتى بات بصيرا بهما(7).

ويبدو أنه كان على معرفة واسعة باللغة اليونانية، فقد ألف رسالة شرح فيها الرموز العلمية المتعلقة بالكيمياء، ولكنه كان حريصا على أن يقرأ العلوم اليونانية مترجمة إلى العربية.

ولم تقتصر حركة الترجمة والتعريب على نقل العلوم، بل شملت الإدارة أيضا، فابن النديم يذكر أنه شرع في تعريب الدواوين التي كانت تستخدم اللغتين: اليونانية والفارسية منذ عهد هشام بن عبد الملك(8).

ولكن الجهشيارى يذكر أن التعريب ابتداء منذ عهد عبد الملك أبيه(9)، ذلك أن الرسائل كانت ترد عليه بالعربية من جميع أرجاء الدولة عدا مصر. ويبدو أن الدواوين المصرية ظلت باليونانية والقبطية إلى عهد ابنه الوليد(10).

ولقد اتجه الأمويون إلى تعريب الدواوين، وجدوا في ذلك أعظم الجد لما أحسوا أنها واقعة في قبضة الأعاجم، وكان الشعبويون يسعون جاهدين إلى أن تبقى دواوين الدولة بلغاتهم، حتى يكون لهم ما يتفوقون به على العرب الفاتحين، وحتى يبقى العرب بعيدين عن تسيير دواليب الدولة. ولعل بعضهم كان يأمل في عودة السلطان القديم للفرس أو للروم، فابن النديم يحدثنا أنه لما عزم الحجاج بن يوسف على نقل الديوان من العربية إلى الفارسية وأوكل ذلك إلى صالح بن عبد الرحمن مولى تميم، سعى الفرس إلى صرفه عن ذلك، وبذلوا له مائة ألف درهم، ونصحوه أن يتظاهر بالعجز، وأن يصطنع التخاذل، ولكنه امتنع عليهم، وأصر على نقله، فقال له أحد الذين يصدونه ويدعى «مرانشاه بن نفروح» :

«قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت الفارسية» (11) ولم تقتصر هذه المقاومة على الفرس، وإنما دخلها الروم أيضا، فكان الذين منهم على الدواوين يسوفون ويماطلون في نقلها، فقد قيل إن عبد الملك بن مروان أمر «سرجون الرومي» أن ينقل الدواوين من الرومية إلى العربية فترأخى، وجعل يلقي بالمعاذير الكاذبة (12).

والغريب حقا أن تحس تلك الطوائف بأهمية الصراع اللغوي والثقافي في الإبقاء على السيطرة والتبعية، على نحو ما تدركه الدول الاستعمارية اليوم، فقد سهلَ عليها أن تُسلمَ مقاليد السلطة في الشعوب التي كانت تستعمرها إلى أبنائها، ولكن عزَّ عليها أن تتخلص تلك المستعمرات من هيمنتها اللغوية والثقافية فسعت بما أوتيت من مكر ودهاء إلى إبقائها في إसार التبعية الفكرية سواء مباشرة أو عن طريق المنظمات الثقافية الدولية، وتستغل فقر تلك البلدان، وحاجتها إلى المساعدة في توطيد هيمنتها الثقافية والحضارية عليها. وما رابطة «الكومنويلث» أو رابطة «الفرنكفونية» إلا أشكال من الهيمنة اللغوية والحضارية والاقتصادية، وهي أهم أهداف الاستعمار المقنَّع، فقد أدرك المستعمرون بالأمس أن سيطرة اللغة والثقافة هي السيطرة الدائمة حقا، وهي التي تُبقي التبعية، وتسلب الكيان الحضاري دون أن تظهر بمظهر العدوان، فهي الكيد الذي يبدو بريئا، والشر الذي يلبس لبوس الخير.

الترجمة في أول العهد العباسي :

بدأت حركة الترجمة في العهد العباسي زمن الخليفة الثاني لهذه الدولة أبي جعفر المنصور الذي يقال إنه استقدم أكبر أطباء مدينة «جنديسابور» المسمى «جرجيس بن بختيشوع»، وطلب منه أن يترجم له كتابا في الطب، فترجمه له. كما استقدم نفرا من الشريان ترجموا له كتابا في النجوم والرياضة. وطلب إلى ابن المقفع أن ينقل له كتابا من أدب الفرس، ففعل (13).

وقد قيل إن الدافع الديني هو الذي كان وراء حرص المنصور على ترجمة

كتب الفلك والرياضة، ذلك أن أول كتاب أمر بترجمته كان كتاب الفلك، المسمى «السند هند»، كما أمر بتصنيف كتاب عربي على منواله، مما يدل على أن حاجة التوقيت للعبادات من صلاة وصوم كانت ملحة في الإقليم الجديد الذي بنى به عاصمة الدولة، ذلك أن الكتاب كان يتعلق بسير الكواكب، ويحدد مداخل الشهور (14).

كانت الترجمة في عهد المنصور من الفارسية إلى العربية : وهذا أمر مألوف ما دمنا نعلم أن الدولة العباسية قامت على سواعد الفرس، وأقيمت عاصمتها على أرض فارسية. وليس أدل على ما نقول من أن الدولة الأموية اتجهت إلى الترجمة من اليونانية لأن قيامها كان في أرض سادت فيها الحضارة اليونانية الرومانية، وبأيدي قوم كانوا رعايا للدولة البيزنطية.

على أن اتجاه المنصور إلى الترجمة من الفارسية وحدها لم يدم طويلا، فلما توطدت له الأمور، وقصد عاصمته العلماء من مختلف أنحاء الدولة، اتجه إلى الترجمة من اليونانية أيضا، فترجم له بعض النساظر كتب «أبقراط» و«جالينوس» في الطب (15).

ولعل العباسيين قد جنحوا منذ عهدهم الأول إلى إقامة توازن في الأخذ عن الثقافات الأجنبية حتى لا يكونوا خاضعين لأي تيار معين، كما أنهم سلكوا طريقة انتقاء الأفضل حتى يكون ما ينتقونه من المعرفة مسرعا بهم إلى الإصالة والإبداع، ومن هنا نرى الطب اليوناني إلى جانب الطب الهندي، والحكمة الشرقية إلى جانب الفلسفة اليونانية، كما نرى بعض الخلفاء مثل الرشيد يدعو إلى بلاطه الطبيب «منكه» الذي أخذ الطب على الطريقة الهندية، والطبيب النصراني «يوحنا بن ماسويه» الذي أخذه على الطريقة اليونانية (16).

فترت حركة الترجمة بعد أبي جعفر المنصور بسبب اضطراب الأحوال أيام موسى الهادي، وانشغال المهدي بمقاومة حركة الزندقة، وعادت إلى الحياة على يد الرشيد الذي حوّلها إلى حركة علمية مستقلة، فأوكل الإشراف عليها إلى طبيبه «يوحنا بن ماسويه»، وترجمت على عهده جميع الكتب التي أمكن العثور عليها في الطب، والكيمياء، والفلك، والحيوان، والجبر، والحيل (17).

والغالب على الظن أن معرفة الرشيد بعلوم اليونان كانت ناتجة عن احتكاكه بالروم وصراعه معهم، فقد فتح كثيرا من مدنهم التي كانت تزخر بالكتب اليونانية، فكان يأمر بجمعها، والاسراع بترجمتها(18)، وهذا ما يفسر غلبة الفكر اليوناني في الثقافة الإسلامية، وطغيانه على ما كان من حظ للتراث الفارسي، بالرغم من أن الدولة العباسية اتخذت صبغة النظام الفارسي سيما على عهد الخلفاء الاول(19).

ويبدو أن البرامكة أحسوا برجحان كفة الثقافة اليونانية فخافوا أن تكون الغلبة لها على ثقافة قومهم الفرس، فهبوا يشجعون الترجمة عن الفارسية، وينفقون الاموال الطائلة على الذين يترجمون منها. كما أنهم هم الذين أشاروا على الرشيد بإنشاء بيت الحكمة، ونشر الطب الهندي ببغداد، ودعوة الطبيب «منكه» إلى البلاط، هادفين من ذلك كله إلى التمكين للثقافة الفارسية، التي كانت لها الغلبة في ميدان الأدب، إلا أنها لم تستطع أن تضارع اللغة اليونانية في الميادين العلمية، وكان الطب أظهر ما تجلى فيه الصراع بين الثقافتين، فجاهد البرامكة في ترجيح كفة هذا الصراع لثقافتهم بما كان لهم من نفوذ سياسي، وثراء مالي(20).

الترجمة في عهد المأمون :

كان من حظ اللغة العربية، بل من حظ الحضارة الإسلامية كلها أن يوجد الله عليها برجل كالمأمون، سخر عقله وعلمه، وسلطانه لبناء أسسها خلال عشرين سنة من حياته، فملا بلاطه بالعلماء، والفلاسفة، وجعل من بغداد عاصمة الدولة قبلية للمعرفة، وبفضل جهوده استطاع المسلمون أن يقفوا بحضارتهم في أقل من مائة سنة، فكانت أعظم الحضارات في تاريخ الانسان(21).

استقدم المأمون كبار العلماء إلى بغداد، وبذل لهم العطايا، والتبجيل، ولكن علماء آخرين قدموا من مختلف البلدان متطوعين لمعركة حضارية شامخة فوجدوا منه ترحيبا وتكريما، وماجت بهم بغداد فكان عصره عصر النهضة بالنسبة للعالم الإسلامي، امتدت فيه حركة الترجمة، واتسعت إتساعا لا نظير له، مما جعل العلوم المنقولة تأخذ مكانة الأصالة في اللغة

العربية أيام المأمون نفسه، ويصبح الكثير منها موضوعا لمجالس المناظرة التي كانت بمثابة المؤتمرات العلمية، وكان المأمون يحضرها ويشارك فيها، فكان العلماء يتلقفون ما يترجمه الترجمة في حينه، ثم يأخذونه بالدرس والنقد، ولم يلبثوا حتى أخذوا يبتكرون، ويضيفون إلى تلك العلوم ما لم يعرفه من قبلهم غيرهم(22).

ولم تكن الترجمة في عهده مقصورة على اليونانية والفارسية، بل تجاوزتهما إلى لغات أخرى مثل السنسكريتية، والقبطية، ووجه المأمون عنايته إلى ترجمة أمهات الكتب مثل كتاب «المجسطي» في الفلك «لبطليموس». وكتاب الاسطقسات(23) لإقليدس، وسلك العلماء في عهده طريقة جديدة، هي أنهم يترجمون الكتاب أولا، ثم يأخذون في شرحه وتحليله ومقابلته بكتب أخرى فيصبح الكتاب المترجم كأنه وضع أصلا باللغة العربية، وبذلك طوعوا هذه اللغة فأصبحت قادرة على أداء المعاني العلمية الدقيقة(24).

لم يقتصر المأمون على ترجمة الكتب التي جمعت في عهده، وإنما أمر بمراجعة ما ترجم قبله لتصحيحه وتهذيبه، مثل كتاب «السند هند» الذي ترجمه من الهندية إبراهيم الفزاري لأبي جعفر المنصور كما قدمنا. فقد قرأ المأمون هذا الكتاب فلم يرض عن ترجمته فعهد إلى محمد الخوارزمي بمراجعته، والتثبت من صحة ترجمته، ثم إن الخوارزمي نفسه ترجم كتابا في الجغرافيا هو كتاب «صورة الأرض» لـ «بطليموس» بطلب من المأمون أيضا(25).

والخوارزمي من كبار العلماء المبتكرين كما نعلم، فهو واضع الجداول الرياضية التي ما تزال تعرف باسمه إلى اليوم، والمعبر عنها باللوغاريتم، في اللغات الغربية، وأصلها - الخوارزمي(26).

ولم يكن دور المأمون في تلك الحركة العلمية الواسعة دور المنشط، والموجه فحسب، وإنما كان يساهم بالبحث والمتابعة، فقد أشار بمراجعة الجداول الفلكية لـ «بطليموس» على أساس من هنات اكتشفها بنفسه عند دراسته لتلك الجداول، كما قام بتصحيح درجة من قياس خط الهاجرة(27). ولقد اقتدى جل العلماء به فشغفوا بحب الاستطلاع، وأقبلوا على البحث

والتجربة والاختبار، وأنشأ الكثير منهم مختبرات خاصة ليحققوا نظرياتهم، أو ليتأكدوا من صحة نظريات من سبقهم، فكانوا بذلك سابقين إلى وضع أسس المنهج التجريبي الحديث (28).

ولم يكن حظ الفلسفة والعلوم الانسانية في ذلك العهد بأقل من حظ الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية، والطب، وإنما أخذت بحظ موفور حتى قبل المأمون نتيجة للحركة الجدلية الواسعة التي ظهرت أيام الأمويين، وكان منشؤها السياسة، وبحث قضاياها من وجهة نظر الدين، لأن الإسلام لا يفرق في حياة الانسان بين دين ودنيا، فلما جاء عصر المأمون كانت الفلسفة قد تجاوزت المرحلة الانتقالية التي كانت تمر بها العلوم في عهده، وأصبحت في مرحلة الشرح والتجديد، والإضافة، ومعنى ذلك أن الفلسفة تحولت إلى تراث عربي، ورسخت قدمها في الثقافة الإسلامية، فظهر في هذا العصر أبو يوسف يعقوب الكندي (ت . 252 هـ) الملقب بفيلسوف العرب (29).

ويوحى هذا اللقب بما قدمنا من أن الفلسفة تحولت إلى ثقافة عربية أصيلة، فالكندي يعدُّ علماً لذلك التحول، وتعد أعماله ومصنفاته فيها دليلاً على أن الفلسفة الإسلامية أصبحت مستقلة في أصولها ومناهجها عن الفلسفة اليونانية (30).

ولم يقف الكندي عند البحوث الفلسفية التي ضمنها رسائله، وإنما تناول التاريخ الطبيعي، وعلم الظواهر الجوية، والرياضيات، والفلك، والطب، والجغرافيا، والموسيقى (31). وكان يكتب بأسلوب فلسفي متعمق حتى في بحوثه العلمية، والواقع أن الطابع الثقافي للعصر قد اصطبغ في معظمه بصبغة الفلسفة، فسيطرت روحها على قضايا الدين والسياسة والعلم والأدب، ونحن لا ينبغي أن ننسى تلك القضية الشائكة التي ظهرت في عهد المأمون، وهي قضية «خلق القرآن». إذ لم تكن تلك القضية في حقيقتها إلا تعبيراً عن جرأة الفلسفة، وحرصها على أن تخوض في مسائل لا ينبغي لها أن تخوض فيها. ولعل استتالة الفلسفة ومنهجها يفسر لنا تسمية أهم مركز للمعرفة : بـ «بيت الحكمة» فلم تكن هذه التسمية إلا تعبيراً عن

الروح الثقافية للعصر.

ويبدو أن المأمون لم يقنع ببیت الحكمة الذي أنشأه أبوه وجعل عليه يحيى بن ماسويه كما قدمنا، فقد أصبح غير موف بالاهداف التي أنشئ لها، لما باتت عليه حركة الترجمة من اتساع، فأنشأ بيتاً آخر سنة 217 هـ وأبقى رئاسته ليحيى بن ماسويه الذي خلفه فيما بعد تلميذه حنين بن إسحاق(32). وقد أنشأه على النحو الذي كانت عليه مدارس السريان، وأراده أن يكون مركزاً لمختلف العلوم النقلية والعقلية، فكانت تؤلف فيه كتب التفسير والحديث والفقه، والكلام، والمنطق، والفلسفة، إلى جانب كتب الرياضيات، والفلك، والطب.(33).

وجد المأمون في أن تُقَتَّنِي الكتب من كل مكان يبلغه سلطانه، فأمر سفراءه، وعماله في أرمينيا وسوريا ومصر وغيرها أن يرسلوا إليه بما تناله أيديهم منها، فكانت القوافل ترد على بغداد تحمل أسفاراً في مختلف فنون المعرفة، قد كتبت بلغات عدة(34)، وحال بلوغها بيت الحكمة يتوزعها المترجمون، لأن المأمون كان من ورائهم يحثهم على الاسراع بترجمتها وإذاعتها بين الناس في لغتهم، وكأنه كان يدرك أن المعرفة مهما كانت قيمتها فإنها تصبح أداة مسخ وقهر وتبعية إذا ما تلقاها قوم بغير لغتهم التي تحمل طباعهم النفسية، وطرقهم في التفكير، إذ ليست اللغة ألفاظاً جامدة، بل وعاء حضاري، وإن تطويعها لأداء فنون المعرفة العلمية يكسبها مواكبة للتطور وقدرة عليه، ويجعلها أداة للتحرر. ومن هنا فإن الرضا بركود اللغة الأم موت للانتماء القومي والحضاري في النفوس، وخذلان للدين والوطن، وما حب الوطن إلا من الدين.

لعل المأمون قد أدرك هذا كله بفطرته الصافية، وذكائه الوقاد، فحرص على ألا ينتشر علم بين المسلمين إلا إذا ترجم إلى العربية، كما أنه لم يقتصر في الأخذ عن لغة واحدة، وإنما كان يأخذ عن ست لغات هي: الفارسية، والهندية، واليونانية، واللاتينية، والسريانية، والقبطية(35). فراراً بالأمة الإسلامية من التقليد والتبعية، وأخذاً للعلم من كل مكان، وبكل لغة يمكن الأخذ عنها، على أن يترجم ما فيها. هذا هو المعنى الصحيح للتفتح، وليس التفتح تمكيناً للغة أجنبية في معاهد العلم، وجعلها أداة لتدريس العلوم،

وقصر اللغة الوطنية على العلوم اللسانية المتعلقة بها، والتراث، فإن اللغة الأجنبية إذا ما وقع التمكين لها على هذا النحو، يتعدى تأثير مجال العلم إلى الثقافة، وأسلوب التفكير، والحياة اليومية، وعندئذ تتمكن مركبات النقص في نفوس الاتباع، ويظلون مبهورين بتفوق من يقلدونه، فيصيبهم التبلد، ويأخذون من شروره ومفاسده أعظم مما يأخذون من خيره وصلاحه.

إن العلم والحضارة لا يمتلكان بالألفاظ، وإنما سبيلهما المنهج، ومن هنا ترجم المأمون أصول العلوم إلى لغته ثم ترك الناس يتبعون مناهج البحث العلمي، فما أسرع ما امتلكوا القدرة على التقدم والإبداع، وما أدراك ما أتوا من عجيبة ذهلت لها النفوس إلى اليوم.

إنه جعل من بيت الحكمة «أكاديمية» للترجمة والتأليف فكانت الكتب تأتيها من كل صوب، وكانت الثنايا تتقاطر عليها برجال العلم والفكر. ويقول الذين يكتبون عن عصور الانوار الإسلامية: إن الكتب اليونانية وحدها كانت تأتي من مصدرين، أحدهما جزيرة قبرص التي هادن المأمون صاحبها على أن يرسل إليه ما عنده من مصنفات، فلما جاءت بغداد اقتبلها بنفسه وأشرف على ترتيبها وإيداعها بيت الحكمة، ثم أوكّل عليها سهل بن هارون فرتب لها المترجمين والدارسين(36).

وثانيهما القسطنطينية عاصمة الروم. فقد كانت الكتب أيضا شرطاً للمأمون في الصلح مع ملكها، ولكن الملك أبى أول الأمر ثم استجاب، ولسنا ندري أسباب إبطائه ورضاه يقول ابن النديم.

«فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون(37)، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة، المخزونة، المدخرة ببلاد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع»(38) فلما أرسل الملك برضاه إلى المأمون، ألف لجنة من العلماء الترجمة، وأمرهم أن يختاروا أمهات الكتب، التي تتضمن أصول العلوم، فقصدوا القسطنطينية وجلبوا منها ما أمروا بجلبه، ويتحدث ابن النديم عن ذلك أيضا فيقول:

«فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة، وغيرهم. فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل»(39).

ويقال أنه جعل على ترجمة هذه الكتب سهل بن هارون، وقسطا بن لوقا، فكان بيت الحكمة يومئذ كخلية من خلايا النحل، وكانت أعمال المترجمين متكاملة: يترجم أحدهم الكتاب ثم يتلقاه منه آخر فيتناوله بالمراجعة والتهذيب حتى يستقيم على اللسان العربي، وإذا ما توقف أحدهم في فهم شيء من النص الذي يترجمه، استعان بغيره دون أن يشعر المستفتي بغضاضة، ولا المستفتى باستعلاء، وإنما كانت الروح العلمية أخذة بأعمالهم(40) فجعلت بيت الحكمة قادرة على أداء رسالة الحضارة الإنسانية بما تقلت من علوم وفنون وفلسفات ذوت عند أهلها، فانصهر كل ذلك في مصب واحد، وظهر للناس مزيج مضيء من معرفة تولدت عنها حضارة لا شرقية ولا غربية هي الحضارة الإسلامية، وذهب الزبد جفاء، وبقي ما ينفع الناس.

لم يمض من الزمن إلا قليل حتى بات المسلمون يؤلفون في العلوم التي ترجموها، ويبتكرون فيها ما لا عهد لمن سبقهم به(41)، و(لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

الخاصة يترجمون أيضا :

لم تقتصر حركة الترجمة على جهود الدولة الإسلامية حين ابتدأت بخالد بن يزيد: وبلغت أوج عطائها على يد المأمون، وإنما فتح لها الخاصة من الاغنياء والعلماء جبهة ثانية لا تقل نشاطا وعطاء عن الجهود التي بذلها الخلفاء من بني أمية وبني العباس، فساهم فيها العلماء والحاذقون للألسنة من مختلف الاجناس والملل : نساطرة ويعاقبة، وصابئة، ومجوس، وبيزنطيين، وأحدث كثير من الاغنياء مكاتب خاصة جعلوها للترجمة، وخصصوا لها الإيرادات، فكان العلماء والطلاب يقبلون عليها، ويقيمون بها، والكتب مبدولة لهم، والنفقة جارية عليهم(42). ومن أولئك الاغنياء الذين كلفوا بالترجمة أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين جعلوا حظا وافرا من أموالهم للمتأمنين. يقول ابن النديم :

«إن أبناء شاكر المنجم(43) كانوا يرزقون جماعة من النقلة - منهم حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم - في الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة»(44).

وانفذ أبناء شاكراً حنيناً إلى بلاد الروم «فجاءهم بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات في الفلسفة، والهندسة، والموسيقى، والأرتماطيقي والطب» (45) وحنين بن إسحاق هذا يعدّ مثلاً رائعاً للعلماء الذين تغير أعمالهم مجرى الحياة، فقد كان يُحسن العربية واليونانية والفارسية، والسريانية، ويجوس المدن والقرى بحثاً عن الكتب القديمة. يشتريها إن رضي أهلها ببيعها، وإلا أستعارها وترجمها. ويقال إن استاذ المترجمين يحيى بن مأسويه دُهِشَ ممّا عاد به حنين بن إسحاق من كتب ترجمها في رحلته إلى بلاد الروم وأوصى أن يخلفه على بيت الحكمة، فأنفذ المتوكّل وصيته، فكان المترجمون يتقدمون إليه بأعمالهم فيراجعها (46) وقد سنّ لبيت الحكمة منهاجاً مبتكراً للترجمة قوامه الاعتماد على المعاني، والتخلص من أسر الألفاظ، وقوالب التعبير، فأمر أن يقرأ المترجم النصّ مرّات عدة حتى تعلّق معانيه كلها بذهنه، ثم يلقيه جانباً ويأخذ في صوغ تلك المعاني من ذاكرته، فتأتي وكأنها وضعت في العربية أصالة.

وأمر كذلك ألاّ يترجم كتابٌ إلا بعد التأكد من صحة النص فيه وذلك بجمع ثلاث نسخ منه ومقارنتها، ثم تُكوّن الترجمة من أصحّ تلك النسخ، وكان يرتحل بنفسه لطلب الكتب النادرة، من ذلك أنه أخبر بكتاب لجالينوس، فخرج من بغداد يبحث عنه إلى أن بلغ الاسكندرية، ولكنه لم يجد إلاّ نتفاً منه بدمشق، وترجم في هذه الرحلة التوراة من اليونانية، وكتب الطبيعيات، والمقولات، والمعادن، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتاب الأغذية والأدوية المسهلة لأبقراط، وكتاب تدبير الناقهين لجالينوس (47).

ويذكر ابن أبي أصيبعة طائفة من العلماء التراجمة ولكنهم لا يبلغون مبلغ حنين وابنه إسحاق الذي علا صيته فيما بعد، وكان نصرانياً مثل أبيه فاعتنق الإسلام على يد المكنكي.

كما يذكر لنا طائفة من الأغنياء الذين كانوا ينافسون الخلفاء في البحث عن المخطوطات القديمة، والإنفاق على ترجمتها، ونشرها بين الناس. من ذلك أن محمد بن عبد الملك الزييات كان ينفق على الترجمة في كل شهر ألفي دينار (48).

وكان هؤلاء الخاصة الذين كلفوا بالترجمة طائفتين في جملتهم : طائفة

اتجهت إلى الترجمة عن الفارسية وابتدأت بالبرامكة، ومنها آل نوبخت، وسهل بن هارون وزير المأمون. وطائفة كانت تترجم عن اليونانية والسريانية منهم أبناء موسى بن شاعر المنجم الذين ذكرناهم، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وابن المدبر، وغيرهم(49).

وكان هؤلاء الخاصة ينتدبون المترجمين العاملين ببيت الحكمة، ويختارون أمهرهم في معرفة اللغات مثلما فعل أبناء موسى بن شاعر حين انتدبوا حنين بن إسحاق الذي كان يجيد أربع لغات(50).

ومن أولئك الترجمة الذين كانوا يترجمون للخلفاء في بيت الحكمة أو للخاصة في المكتبات التي خصصوها لذلك، من وقف نفسه على الترجمة من لغة واحدة مثل «ماسرجيس» الذي كان يترجم عن السريانية دون غيرها، ومثل «قسطا بن لوقا» الذي كان يترجم عن اليونانية بالرغم من أنه كان يجيد السريانية، والآرامية، ومثل أبي سهل الفضل بن توجنت الذي خص نفسه بالترجمة عن الفارسية. ومنهم من اختص بفن من فنون العلم لا يتجاوزه إلى غيره مثل «ماجرجيس» الذي ذكرناه، والذي كان طبيبا، فكان لا يترجم إلا كتب الطب، أو ما يتصل به من كتب كيمياء الأدوية(51).

كان ذلك العصر عصر التنوير الإسلامي، عزم فيه المسلمون عامة وخاصة، خلفاء، ووزراء، وأهل مال، وأهل علم على أن يمتلكوا أصول المعرفة في العالم القديم بلغتهم، ولم يمض إلا قرن ونصف حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا لأنهم لم يكونوا يعرفون لمثل هذه القضايا أنصاف الحلول.

حمادي العبيدي

مراجع البحث

- (1) ابن أبي أصيبعة (ت . 667 هـ).
عيون الانباء في طبقات الاطباء.
المطبعة الوطنية . مصر 1882 م.
- (2) الجهشيارى، أبو عبد الله محمد (ت . 331 هـ).
الوزراء والكتاب . القاهرة 1938 م.
- (3) ابن خلكان شمس الدين أحمد (ت 681 هـ).
وفيات الأعيان . بولاق . القاهرة 1964.
- (4) القفطى، جمال الدين علي بن يوسف (ت 646 هـ).
إخبار العلماء بأخبار الحكماء . بيروت 1912.
- (5) ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت 383 هـ).
الفهرست . القاهرة 1348 هـ.
- (6) أحمد أمين
فجر الاسلام . القاهرة 1961.
- (7) آدم ميتز
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
(ترجمة الدكتور محمد الهادي أبو ريده) . القاهرة 1957.
- (8) ألدو مييلي :
العلم عند العرب وأثره في التطور العلمي العالمي.
(ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، ومحمد يوسف موسى) القاهرة 1962.
- (9) بدوي عبد الرحمان
دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي . بيروت 1965.
- (10) بروكلمان (كارل)
تاريخ الشعوب الإسلامية
- (11) جروهمان (أدولف)
أوراق البردي العربية.
- (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن . القاهرة 1934.
- (12) حسن إبراهيم حسن
تاريخ الإسلام . القاهرة 1964.
- (13) روزنتال (فرانز)
مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي.

- (ترجمة أنيس فريخة) . بيروت 1980.
- (14) أبو ريده محمد الهادي
رسائل الكندي الفلسفية . القاهرة 1950.
- (15) الزيات، أحمد حسن.
تاريخ الأدب العربي. مكتبة مصر (د - ت).
- (16) شاخت وبورورث
تراث الاسلام . (سلسلة عالم المعرفة).
- (ترجمة الدكتور حسين مؤنس وإحسان صدقي العمدة) الكويت 1978.
- (17) شلبي أبو زيد
تاريخ الحضارة الإسلامية. القاهرة 1964.
- (18) طوقان، قدرى
العلوم عند العرب . القاهرة 1956.
- (19) الطويل ، توفيق
في تراثنا العربي الإسلامي (سلسلة عالم المعرفة) الكويت (د - ت).
- (20) العبادي، عبد الحميد (بالاشتراك).
الدولة الإسلامية وتاريخها . القاهرة 1966.
- (21) العقاد، عباس محمود.
أثر العرب في الحضارة الأوروبية. القاهرة (د - ت).
- (22) كوربان (هنري)
تاريخ الفلسفة الإسلامية.
(ترجمة نصير مروّة بالاشتراك). بيروت 1966.
- (23) لوبون (قوستاف)
حضارة العرب.
(ترجمة عادل زعير). القاهرة 1964.
- (24) منتصر ، عبد الحليم.
محاضرات في العلوم عند العرب.
معهد الدراسات العربية. القاهرة (د - ت).
- (25) النشار، علي سامي
مناهج البحث عند مفكري الاسلامي. بيروت 1984.
- (26) هونكه سغريد
شمس العرب تسطع على الغرب.
(ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي). بيروت 1964.

الهوامش :

- (1) عبد الحليم منتصر : محاضرات في العلوم عند العرب، ص . 52.
- (2) يعني بذلك الكيمياء والطب وكانا مما يشتغل به الفلاسفة.
- (3) الفهرست : ص . 352.
- (4) وفيات الاعيان، ج . 1 ص . 211.
- (5) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج . 1 ص . 510.
- (6) هونكة سفريد : شمس العرب تسطع على الغرب ص . 578.
- (7) المرجع السابق.
- (8) الفهرست : ص . 353.
- (9) الوزراء والكتاب : ص . 38.
- (10) أنظر : أوراق البردي العربية، ج . 1 - ص . 28. ترجمة حسن ابراهيم حسن.
- (11) الفهرست : ص . 352.
- (12) المرجع نفسه، ص . 353.
- (13) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي، ص . 358.
- (14) هونكة سفريد : شمس العرب تسطع على الغرب، ص . 379.
- (15) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 2 ص . 345.
- (16) شمس العرب تسطع على الغرب، ص . 379.
- (17) علم الحيل هو علم يبحث نوااميس الحركة والموازنة وتطبيقها، ويسمى اليوم بالميكانيك.
- (18) أبو زيد شلبي : «تاريخ الحضارة الاسلامية» ، ص . 69.
- (19) المرجع نفسه.
- (20) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ج . 2 ص 39.
- (21) قوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة عادل رُعيتر، ص . 98.
- (22) عبد الحليم منتصر : محاضرات في العلوم عند العرب، ص . 44.
- وانظر أيضا : مناهج البحث عند مفكري الإسلام لعلي سامي النشار، ص . 332.
- (23) الاسطقشات : العناصر.
- (24) قدرى طوقان : العلوم عند العرب، ص . 32.
- (25) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ج . 2 - ص . 41.
- (26) توفيق الطويل : في تراثنا العربي الاسلامي، ص . 238.
- (27) عبد الرحمان بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي، ص . 230 وما بعدها.
- (28) قدرى طوقان : المرجع السابق، ص . 32 33.
- (29) ابراهيم مذكور : في الفلسفة الاسلامية، ج . 2 ، ص . 78.
- (30) محمد الهادي أبو ريده : رسائل الكندي الفلسفية ، ص . 162، وانظر معجم المؤلفين لكحالة، ج . 13 - ص . 244.
- (31) الموسوعة العربية، ص . 1483.
- (32) هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية. ج . 1 ص . 57.

- (33) عبد الحميد العبادي : الدولة الاسلامية وتاريخها، ص . 21.
- (34) فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص . 49 وما بعدها.
- (35) ابراهيم مذكور : في الفلسفة الاسلامية، ج 2 - ص . 77.
- (36) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ترجمة عبد الرحمان بدوي، ص . 37، وما بعدها.
- وانظر أيضا شمس العرب لهونكة سفريد، ص . 379.
- (37) انتصر عليه.
- (38) الفهرست : ص . 354.
- (39) نفس المكان.
- (40) انظر : القديم والحديث لحمد كرد علي ، ص . 70، وراجع أيضا: محاضرات في العلوم عند العرب، ص . 54 لعبد الحليم منتصر.
- (41) شاخت : تراث الاسلام، ج 3 - ص . 82، وانظر : العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة عبد الحليم صبرة، ص . 78 وما بعدها.
- (42) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية، ج 1 - ص . 307.
- (43) كانوا ثلاثة هم : احمد، ومحمد، والحسن.
- (44) الفهرست : ص . 354.
- (45) المصدر نفسه : ص . 356.
- (46) القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص . 172.
- (47) المرجع نفسه، ص . 174. وانظر أيضا تراث الاسلام لشاخت، ج 3 - ص . 89.
- (48) عيون الانباء : ج 1 - ص . 306.
- (49) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج 2 - ص . 345 وراجع أيضا ص . 246.
- (50) ابن أبي اصيبعة : المرجع السابق، ص . 203.
- (51) ابن أبي اصيبعة : نفس المكان.